المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الرابع والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٤ — ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٥٢

العلم والفلسفة

كان عهدٌ وكانت المعارف الانسانية قليلة التنوُّع . ففي عصر الاغريق الاقدمين ، كان حكماؤهم لا يفرقون بين الرياضة والمواليد والسيكولوجيا وأدب النفس فكانت طائفة كبيرة منهم فلاسفةً ومصلحين ورياضيين وطبيعيين في آنٍ واحد . بل وكانوا ساسة وجنوداً ومهندسين وتجاراً كذلك ، وهذا يدلك على وحدة المعرفة في عصرهم ، بل على وحدة المعرفة والعمل . حتى التعليم في «الاكاديمية» و«الليسيوم» كان وفقاً للتقاليد الموروثة عن فيثاغورس تعليماً عامًّا يتناول المبادىء والاصول في الغالب دون التفصيلات . وهذا لا ينفي ان بعض المفكرين في تينك المدرستين حاولوا الانقطاع لفرع واحد من فروع المعرفة والتوفر عليه . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض وتتحيَّز مباحثها الا في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها

وكان من الطبيعي ان تكون المعرفة وحدة غير مجزأة ، لما كانت العلوم في مهدها . بيد ان موقف الاغريق نحو وحدة المعرفة ، يعدو هذه الظاهرة السطحية . ذلك انهُ يقوم مثلاً واضحاً على الصلة الوثيقة بين ارتقاء الرياضة والعلم من جهة والفلسفة من جهة اخرى . وفي مكنتك ان تتبيَّن أثر هذه الصلة خلال العصور التي تلت عصر الاغريق الى عهد قوبرنيقوس وكپلر ونيوتن . ثم اننا نجد مكتشفات ديكارت الرياضية والعلمية أساساً لاسلوبهِ الفلسفي ، بل ان نظرتهُ الكونية Cosmological والبيولوجية اوحت الى الفيلسوف سبينوزا برهاناً هندسيًّا لنواهي الضمير . ثم انت تقع في فلسفة ليبنتز على فكرة « التناهي في الصغر » فتجدها كسمط العقد تنظم رياضتهُ العالية (حساب التمام والتفاضل) ونظريتهُ في المادة وفلسفتهُ النفسية والادبية وفقههُ الديني

وكانت فلسفة كانت باعثاً على فتح الهوَّة بين العلم والفلسفة في القرن التاسع عشر . فاصبح العلم متصلاً

اوثق اتصال بالعقل المجرّد قائماً عليه . اما شؤون الحياة اليومية وما يلازمها من اقامة الاوزان الادبية فتركت لاحكام العقل العملي والخبرة ، وهذا أسبغ ظلاً من الريبة على مكانة المسائل الفلسفية من العلم . فلما تمّ للعلم القائم على العقل المجرّد ، سلسلة من الانتصارات الباهرة قامت مدرسة الوضعيين وهبطت مكانة الفلسفة . فتمهّد السبيل حينئذٍ ، لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكيًّا ماديًّا . وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة من حيث ان الشيء لا يكون حقيقيًّا الاّ اذا كان كالمادة ، مما تدركه الحواسّ ولو ادراكاً نظريًّا كادراك الذرّات وما عدا ذلك ، فتخبطٌ في عالم من الاشباح . وغدا حتماً على كل باحث عن الحقيقة ان يحللها الى اجزائها ويصفها بما تتركب به من الجزيئات والذرّات

ومن العجيب ان التمادي في هذا التحليل قضى على « الحقيقة » كما نشدها هؤلاء المفكرون

أما وقد اصبحت المادة خليطاً من المكان والزمان والامواج ، فالاساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب ان تنطبق على صفات الاشياء التي تدركها الحواس ، فليس ثمة حائلٌ الآن ، دون حسبان ، ما يوحي به الاختبار الديني او حسّ الجمال ، في عداد الحقائق . وكذلك تمهدت الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفيًّا جديداً . وكانت النتيجة الاولى ، لهذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة اخذوا يبحثون عن حلول لمشكلاتهم الخاصة ، في المناطق التي وراء علم الطبيعة كما كنا نعهده . والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء هذه استرعتهم اساليب العلوم ونتائجها ، وهبطوا ببحث « ما وراء الطبيعة » الى دور الامتحان . ثم ان فلكيين وطبيعيين من مقام ادلنغتن وجينز وبلانك واينشتين ، اصبحوا لا يحسبون عالم المادة ذا كيان مستقلٍّ عن العقل . وموقفهم هذا نقيض موقف اسلافهم في اواخر القرن الماضي ، اذ كان اولئك يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكل ما عداهُ شبحاً من الاشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو لك ابعث على العجب ، اذ تعلم ان المادة كانت في نظر الاسلاف خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس الميكانيكية . ولكنها في نظر المعاصرين متصفة بنوع من حرية الارادة ، وفقاً للمقتضيات التي ينطوي عليها مبدأ هيزنبرج في عدم التثبت . ويعلّق الفيلسوفان الكماليان هوايتهد ورسل ، بهذه الناحية من صفات المادة شأناً خطيراً

ومن نتائج هذا التعاون في علوم الحياة ، ان الحياة لا يمكن ان تكون نتيجة لافعال المادة الجامدة سائرةً سيراً اعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيء اساسي مبدعٌ ولها قصدها الخاص . ومن هنا نشأت فلسفة تعرف بفلسفة التطور المبدع ، تخلق الحياة بمقتضاها ، اشياء جديدة خلقاً متصل الحلقات . حتى الذين لا يسلمون بالتفريق الاساسي بين المادة والحياة ، يعمدون الى فلسفة البزوغ (Emergence) كهوايتهد والكسندر ومورغن او الفلسفة الكلية Holism كسمطس وانداده

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية الحياة الفكرية في هذا العصر . ولا يسعنا الآن ان نحسب احدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الاخرى . بل هما عضوان حيّان في جسم حي هو جسم المعرفة الانسانية